من تراب الطريق (٥٢٧)

ملكة الخيال (*) (١)

من يراقب صفات وأحوال الإنسان وسائر الأحياء، يلاحظ أن أميز ما مُيِّزَ به الإنسان إلى جوار العقل ملكة الخيال .. فإذا كان لبعض الخلائق قدرٌ ما من العقل، ولو ضئيل، إلاَّ أن ملكة الخيال خاصية إنسانية صرف لم يمنحها الله عز وجل لغير الإنسان ...

والإنسان لا يتخلى عن الخيال فى أية لحظة من حياته .. يقظا كان أو نائما .. ذلك أن الإنسان لا يستغنى قط عن الوعى، والوعى لا يستغنى عن الإدراك البشرى، والمركبة الأولى والأخيرة لهذا الإدراك ولما يصحبه من تفصيلات وأحكام واحتمالات هى الخيال الذى يزودنا باستمرار بالصور والعلاقات التى لا حصر لها، والتى منها نسيج وعى حياة كل منا .. صغيراً كان أو كبيرا .. جاهلاً أو عارفاً .. بدائيا أو متحضرا. ونحن لا نستطيع أن نرى تلك الصور والعلاقات والأحكام والاحتمالات لا نستطيع أن نراها على أنها صادقة أو متوهمة إلاَّ عن طريق ما يرسمه خيالنا لوعينا . وما نراه فى وعينا ليس هو الصورة الحقيقية الفعلية لما هو موجود مما يستطيع كل موجود آخر غير الإنسان أن يراه كما يراه الإنسان .

ونحن فى حال اليقظة نرتب عادةً على ما نراه وندركه أن ما معنا واقع، مع جواز أن يتبين لنا فيما بعد أننا أخطأنا النظر أو الفهم، ووقعنا فى وهم أو خطأ .

(*) المال ٢٦/٩/٢٠١١

وعكس ذلك يكون اعتقادنا لما نراه فى النوم من الرؤى والأحلام .. فالغالب ألا نحفل به وأن نحمله على أنه أضغاث أحلام وأوهام . ولكن قد نعتقد لسبب أو آخر أحيانا أن رؤيةً ما فى النوم ، تنطوى على إشارة رمزية سرية تحتاج إلى تفسير ، وتشير إلى واقع سيحدث . وهناك أشخاص يعتقدون أن بعض ما يرونه فى النوم يتحقق برمته فى الواقع ، بقضه وقضيضه ، وهذا نادر ولا سبيل للتحقق منه عند سامعيه أو قارئيه .

والخيال يسعف الآدمى لكى يعى ويدرك ما يمكنه وعيه وإدراكه بنجاح ليمارس حياته وتطوره فى العالم الخارجى الذى يعيش فيه يسعفه بألفاظ اللغة والمصطلحات المتعارف عليها وبالأرقام والرموز المتداولة ، وكل من هذه الفئات بصوره يمسك بعلاقة أو علاقات مجدية فى العالم الخارجى ، وعلى جانب من الصحة يستخدمها خيال الآدمى فى رسم الصورة التى تتوالى مرئية أو مسموعة على لوحة وعيه بلا انقطاع ، وتستجيب لها أفعاله وردود فعله وفهمه للعالم الخارجى ، فهماً يحقق تعايشه معه وفيه بقدر معقول من الإمكان والوقوف حسبما تسمح به أحوال وظروف الزمان والمكان ، وعلى ما وصلت إليه علومنا الوضعية وفنوننا وصناعاتنا .. وما إلى ذلك حتى الآن نسيجٌ بالغ الكثافة والسعة من تلك الألفاظ والمصطلحات والأرقام والرموز .. ييسر لخيالنا ووعينا الإمساك بتلك العلاقات المجدية التى تربطنا بالعالم الخارجى ونواميسه غير البشرية .

والبشر عادة لا يلتفتون إلى الدور الرئيسى للخيال فى حياة كل منهم ، وفى حياة جماعاتهم وجنسهم . ونحن لا نكاد نعرف أنه هو الذى يهيئ ويصور كل ما نشعر ونحس به .. لأننا لا نشعر ونحس دون تصوير لحالة من حالاتنا

ولمصدر داخلى فينا أو فى خارجنا لهذه الحالة . وكل ما نعيه أو نفعله وراءه حتماً خيالنا بصوره فى وعينا .. وهذا الخيال هو الذى يعطى الشكل والملمس والطعم والرائحة واللون لكل ما نرغبه ونحبه أو نرفضه وننفر منه .. وهو الذى يخلع المهابة والإجلال على الأشخاص الذين نجلهم أو الرونق والجمال على الأشياء التى نعتز بها .. كما يخلع الهوان أو الازدراء على من وما نرى أنه يستحق الهوان والازدراء من الأشخاص والكائنات .. وهو الذى يثير بما يصوره لنا أنواع ودرجات الخوف والفزع والتشاؤم واليأس ، وكذا أنواع ودرجات البهجة والارتياح والتفاؤل والأمل والأمان .

ولو توقف خيال الآدمى عن عمله لتوقف عمل وعيه ، ولو فقد قدرته على التخيل كلية لفقد الآدمى حتما شعوره بذاته وحياته كلها وصار فى عداد الأموات وإن كان جسمه فيه حياة أو بقية من حياة .. فهذه الحياة فى هذه الحالة حياة تائهة ليس لها عنوان وليس لها صاحب يشعر بها .. لأن ارتباط الخيال بالذاكرة ارتباط حتمى لا انفكاك له إلاَّ مع فقد الحياة الواعية .. إذ لا تسجل الذاكرة الحية ولا تستحضر إلاَّ ما زودتها به المخيلة التى تنتمى إلى ذات الآدمى وتصب ذكرياتها فى وعيه ابتداء وانتهاء من لحظة التسجيل .. صغيرا كان الآدمى أو كبيرا .. بدائيا أو متطورا . لأن كل ما تسجله الذاكرة تشارك فيه المخيلة .. سيان أن يكون شكلاً أو رسماً أو لغة تُقال أو تكتب أو اصطلاحاً أو رقماً أو علامةً أو رمزاً وذلك بصورته القابلة للتصور والإدراك لدى عموم الآدميين .

من تراب الطريق (٥٢٨)

ملكة الخيال (*) (٢)

نشاط خيال كل منا لا يهدأ قط .. وهو يتأثر بحاجاتنا وبعواطفنا وانفعالاتنا وغرائزنا وإراداتنا ، سيما بغضنا وكراهياتنا وشهواتنا وأحقادنا ، ويساق إلى وجهاته تارة دون وعي وإرادة ، وطورًا عن عمد وقصد إلى أغراض تقبلها جماعة الآدميين أو تتحملها ، أو إلى أى أغراض غير مقبولة أو مرفوضة أو غير مشروعة .. فالخيال هو الذى يصور طعام الجائع وريّ العطشان وإشباع المحروم ، ونقمة الحاقد والحسود والمتعصب ، وخبث الكاذب والمتحل والمختلق والمزور ، وأمانى المغرض والمتفائل الواثق ، واجتهاد الباحث والمكتشف والمفكر ، وأشواق المحب والشاعر والفنان ، وقداسة القديس والولى وتفانيه فى خدمة الغير والعقيدة . لأن خيالنا دائما هو المعبر الأول عن كل ما نعيه مما يجرى داخلنا فقط أو مما يجرى بيننا وبين المحيط الخارجى فعلا أو وهما وأحاديث نفس !

ودور عقلنا مع خيالنا هو دور المصحح على قدر إمكانه حين لا يتعرض لضغوط العواطف ، أو دور المنقح فقط حين يرى نفسه أعنى العقل فى خدمة ما نشتهيه أو نخشاه .. وهو فى الحالين يصحح أو ينقح خيالاً بخيال يرى أنه أصوب وأجدى .. لأن عقلنا لا يتعامل إلاّ فيما تقدمه قدراتنا من الخيال والتصور كأفراد مجاميع فى الماضى أو فى الحاضر .

(*) المال ٢٧/٩/٢٠١١

ولو تأملنا مقدار الغيب الذى يكتنف الآدميين فى داخلهم وخارجهم ، لعلمنا حاجتهم الماسة إلى الخيال الواسع طوال حياتهم على الأرض فى دنياهم .. وهى حياة ليست محصورة فى الضروريات كباقى الكائنات الحية ، فإمكانات الآدمى أوسع وأبعد مرمى بكثير من ضرورياته ، ولذا أُعِينَ بالخيال لمسايرة هذه الامتحانات المتوقفة على صدق الاحتمالات التى تتعرض لها وتواجهها .. وهى تصدق تارة وتخفق أو تخيب تارات . هذا وملاقاة هذه الاحتمالات البالغة الكثرة نوعاً وعدداً وزماناً ومكاناً ، فيها من أنواع الغيوب لغير خالقها ما لا يتأتى لمخلوق تصوره بدون الخيال الذى هو رحم الاحتمال .

وخيالنا يساير نوعاً ودرجة وقوة وضعفاً وجنساً وعمراً وزماناً ومكاناً وتطوراً يساير بالنسبة لكل فرد ولكل جماعة ولكل عصر ؛ أنواع الحاجة والمطالب والرغبات والأشواق والأطماع والمخاوف والمكاره والأحقاد والعداوات والخصومات والثارات . ولذا يختلف خيال الطفل عن خيال الصبى عن خيال المراهق أو الشاب أو الكهل أو الشيخ ، ويختلف خيال الإناث عن خيال الذكور خلال مراحل الأعمار ، كما يختلف خيال الجاهلين عن خيال العالمين ، وخيال أهل البحر عن أهل البر ، وخيال أهل الحضر عن أهل الريف والبادية ، ويختلف خيال الخاصة عن خيال العامة ، وخيال الحكام عن خيال المحكومين .. وهى اختلافات لا تحول عادةً دون التعايش أو المعايشة ودون نوع من الامتزاج والتعامل والتعاون.. والآدميون يراعون عادة هذه الاختلافات فى صلاتهم وتعاملاتهم وعلاقاتهم بعضهم ببعض ، ويلاحظونها غالباً فى نظرتهم إلى عادات وأعراف وسلوك الماضين والسابقين .

فخيال البشر دائماً يسع اختلافات وموافقات الأفراد والجماعات فى ماضيهم وفى حاضرهم .. وهو يسع أيضاً ما يطرأ فى مستقبلهم الذى هو كله خيال وانتظار .. فيه المتوقع وفيه المحتمل وفيه البعيد الذى كان فى حينه شيئا من الوهم !

وخيالنا كبقية عالم النفس ؛ دائب الحركة والتغير باطراد فى موضوعه ومحله .. شيئاً كان أو فكرة أو شعراً أو بحثاً أو تجربة أو علاقة أو عرفاً أو عادةً أو اعتقاداً مما لا يخلو منه قط عالمنا الخارجى بتعبيراته وإشاراته ورموزه ومظاهره المحسّة القابلة للتذكر والتداول والأخذ والعطاء والقبول والرفض ؛ التى قد ينسينا اعتيادنا الدائم التعامل معها ينسينا دور الخيال فيها .. فننظر إليها فقط ونعتبرها وحدات فعلية منفصلة بوجودها وذواتها .. وذلك كله بسعى وفضل خيالنا الذى لا يفارق قط وجودنا الواعى كله . فكل ما مع الآدميين فى أى زمان وأى مكان من ماضٍ وحاضر ومستقبل ، وكل ما معهم من مادى ومعنوى وخاص وعام وجميل وقبيح ومحبوب وبغيض وصحيح وباطل وصادق وكاذب وحقيقى وخرافى ووهمى كل ذلك الذى مع الآدميين أصله وفرعه خيال الآدمى ، وبدونه لم يكن ليوجد شىء فى وعى الآدمى ، بل لم يكن يوجد للآدميين وعى على الإطلاق !

من تراب الطريق (٥٢٩)

ملكة الخيال (*) (٣)

إن معارفنا بقضها وقضيضها ، وعىٌ قوامه وغذاؤه وتطوره وتأخره وغناه وفقره خيال الآدمى وحظه من الاشتعال والخمود والجرأة والقعود والسعة والضيق . وجميع ما فى كتبنا ومكتباتنا وسجلاتنا ومحفوظاتنا وما تحتويه دورنا وقصورنا وحقولنا ومصانعنا ومعاملنا ومدننا وقرانا وثقافاتنا ماضية وحاضرة إن هى إلاَّ بصمات لخيالنا الهائل الرائع الذى ميزنا به الخالق عز وجل على سائر الكائنات الحية فى هذه الأرض .

وينبغى ألا ننسى أننا نولد وصحيفة وعينا تكاد تكون خالية .. وأن الذى يقوم بملئها هو خيالنا الذى تبدأ شعلته فى الظهور من الميلاد الذى يواكبه أيضاً ومن البداية ظهور وعينا لحاجتنا الأولية التى يجتهد خيالنا فى حمل الغير على الاستجابة لها ومواجهتها .. هذا ما يفعله الرضيع مع أمه لحملها على إرضاعه ، أو لنظافته أو لعلاجه مما يؤلمه .. وهلم جرا .

وما نسميه بالخبرة هو نتائج خيال نجح أو فشل تردد لأنفسنا ناتج تجاربنا أو تجارب من حولنا فى نجاحه أو فشله ، وإقرار المجتمع الذى ننتمى إليه لحاصل هذه التجارب من نجاح أو فشل .. هذه الخبرة المتراكمة صارت عادة فكرية لخيالنا أو يسوقنا إليها هذا الخيال فى كل ما قد يصادفنا من مواقف أو مناسبات أو ظروف مشابهة تستدعى حصاد التجارب السابقة من نجاح أو إخفاق . وغالب سلوك الآدميين فى توالى عصورهم مبنى على هذا النوع من

(*) المال ٢٨/ ٩/ ٢٠١١

الخبرة .. وقلما يفكرون أو يجدون ما يدعوهم إلى التفكير فى تغييره أو تخيل وتصور تغييره ؛ إلاَّ لداع يرونه ملحاً أو مؤثراً أو يمكن أن يكون له تأثير .

واحتياجنا للخبرات مبناه احتياجنا للخيال مصحوباً بمحاولة تنفيذه .. وهذا شىء لم يكن منه بدٌّ لحياة الآدمى كلها .. لأنه غير مزود من بداية حياتنا إلى نهايتها بمعرفة حقيقية لما يجرى بداخلها ولا بالقدرة على التعبير عنه تعبيراً صحيحاً ، ولا بمعرفة ذلك ولا بالقدرة على صحة وضعه بالنسبة لغيره من الأحياء .. آدميين وغير آدميين .. أو بالنسبة لداخل وخارج ما يجرى فى الأرض أو فى أى جزء من أجزاء هذا الكون العظيم .

إن الخالق عز وجل هو الذى أخرجنا من العدم أو مما هو فى حكم العدم بالنسبة إلينا أخرجنا إلى وجود لا ندرى عنه شيئاً ، إلى عالم لا نعرف ما فيه .. مزودين فقط باستعدادات زودنا سبحانه وتعالى بها .. منها الخيال والوعى والحواس والذاكرة .. وهذه الاستعدادات تبدأ فى العمل مع ابتداء حياتنا ، وتساير فى النمو نموها ، ولا تتعجل الأوان المقدر لها ، ولكن قد تؤخرها أو تقوضها ظروف الزمان أو المكان أو البيئة .

وقد عرفنا فى حدود بشريتنا معنى الحقيقة ودلالة الصحة وقوة المنطق وقيمة الإيمان والإخلاص والصدق والخير والسلام . ولكن معرفة قدراتنا بذلك كله مبناها الاستنتاج والموازنة والمقارنة ومقابلة الأحداث والتجارب بعضها ببعض . عرفنا ذلك بفضل أو على يد ما وهبنا الخالق عز وجل من سعة خيال ووعى العقل والجرأة على الانتفاع بهذه السعة ومن المثابرة الثبات على هذا الانتفاع بالمتاح لنا وعدم التفريط فيه أو التخلى عنه مهما كانت المصاعب والمخاوف والمخاطر ، ومهما اشتعلت الأطماع والأهواء .. لقد

أقمنا بقدراتنا العجيبة على التخيل والتجربة والخبرة أقمنا ما اطمأن واستقر لدينا عبر الأحقاب والدهور ، ومن نتاج النجاح والفشل ، ما ازدان به الآن العقل البشرى من جواهر المعرفة والفطنة والتطلع إلى رؤية لا تكاد تعرف حدًّا فى الفهم والتوفيق فيه ، وما بلغت إليه ضمائرنا فى العمق والإبصار والحساسية التى يكاد لا يوقفها حائل ، وما جمعت ووسعت أرواحنا من الركائز والآمال والبشائر ، وما عم مبادئنا وأخلاقنا وعقائدنا من استنارة وإدراك وفطنة لم تعرف لها سابقة من قبل .. وهذه النعمة نعمة الخيال لم تكذّب جدواها برغم العثرات والنكسات والضلالات التى ملأت طريقها وتقاضت حصتها من حياة الآدميين وأمنهم وجهدهم .

قد يمرض الخيال بمرض الوعى والعقل ، كما يمرض بمرض الجسد إذا امتد إلى النفس ، لأن الخيال جسر ممدود بين هذه جميعاً .. يحس بما يلم بأى منها من شر أو خير ، وإذا فقد أحدها الصحة نهائياً صار خيال صاحبه نقمة عليه وعلى من حوله !

وكثيراً ما يقلد الناس أو يحاكون خيال بعضهم .. لأن الخيال جزء من عالم الفكر الذى معظمه محاكاة وتقليد .. وذيوع الفكر وانتشاره أساسه ومبناه الإقناع ثم التقليد .. أو دافعه التقليد بغير احتياج للإقناع .

هذا وأمانينا من ضروب الخيال كآمالنا ، ولكنها أبعد جداً من أن تتحقق لأنها أكبر وأوسع بكثير مما نعرفه من إمكاناتنا .. وهى متنفس يخفف من مرارة الشعور بالعجز والقصور والتقصير .. وهى أقرب إلى الأوهام والأحلام بخلاف توجهنا إلى الرب تبارك وتعالى بالدعاء والرجاء اللذين يحملان إلى القلب دائماً ثقةً واطمئناناً وأماناً ويغمران أعماقنا بالهدوء والثبات .

هذا والفارق الأساسى بين الخيال وبين الوهم المحض ، هو أن نعمة الخيال نعمة كبرى اختُصَّ بها الآدميون .. مقصورة على الميادين التى يرى الآدمى الجاد أنها مجالات لما يستطيع أن يفرغ فيها جهداً يبلغ المزيد من الفهم والتصور والدراية والاقتدار على التحقيق والتنفيذ متى جَدَّ واجتهَدَ وبَحَثَ وكَافَحَ وأَصَرَّ وثَابَر . وهذه المناطق لا مجال فيها للأوهام والأحلام ، كما لا يمكن أن تتسع للمصادفات والحظوظ التى لا مجال فيها للاجتهاد والكفاح ، والتى قد يفوز فيها البعض بثمار لا مبرر لفوزهم بها !!

من تراب الطريق (٥٣٠) ملكة الخيال (*) (٤)

إن ما معنا الآن من علم وفن وفهم على درجةٍ عاليةٍ غير مسبوقة فى تاريخ الإنسانية من التركيب والعمق والدقة .. قد جاءنا بفضل موالاة اتساع الخيال البشرى ومرونته مرونة هائلة مدهشة ، وبفضل ما منحه لطوائف المشتغلين بالعلوم والفنون من شدة العناية بصحة ودقة الفهم إلى أقصى ما فى الطاقة من الاجتهاد والكفاح والمثابرة والإصرار .. مع فضل النجاح التكنولوجى فى تحويل معظم ذلك الفهم إلى واقع محسوس يمكن أن يعايشه العاديون من البشر ، ومنهم كثيرون لا يعرفون ولا يستطيعون أن يعرفوا من أين ولا كيف جاء ، ومع ذلك لا يحول جهلهم بذلك دون أن ينتفعوا بما صار فى أيديهم منه .

وقد أدى ذلك فى الأمم المتقدمة ، إلى نقلة بل ثورة فى التعليم تخلت بها عن التركيز على النقل والحفظ ، وإلى الاهتمام بصرف معظم الجهد فى تنمية الخيال وتوسعة الفهم وتعويد المتعلمين بحسب أعمارهم ودرجاتهم فى التعليم على التعلق الشديد بالتصور والدقة فيه والصبر عليه والمثابرة على تتبع مساراته ومضامينه والعثور على ما يمكنهم العثور عليه من نتائج قد تنفعهم أو تنفع غيرهم فى الوصول إلى ما هو أبعد أو أفضل أو أوضح أو أكثر دقة وخصوبة مما معهم .

(*) المال ٢٠١١/٩/٢٩

ثم إن ما يتحقق مما نتخيله داخلنا أو خارجنا ، ماديا كان أو معنويا ، يكتسب لدينا نحن البشر صفة الواقع .. لأنه واقع بشرى لا يعرفه ولا يتقيد به الكون وما فيه ، ويفقد بالضرورة طابعه هذا إذا انقطع اتصاله بالبشر على نحو دائم .. فما نسميه نحن بالمتروكات والخرائب والقمامة والفضلات ليس له معنى لدى الكون .. كذلك ما نسميه بالمواقف والاتجاهات والمذاهب والأعراف والعادات والأوضاع والألوان والروائح والأشكال والأوصاف والملامح والسحن .. هذا كله بشرى ليس له دلالة فى الكون العريض الذى نعيش على ذرة منه . وهذا كله متوقف على وجود الآدميين واهتمامهم به ؛ فإذا فقد وجودهم أو فقد وجود اهتمامهم به لم يعد له وجود ؛ ولم يعد يدور بخيال أحد شأنه شأن ما ابتلعه العدم الذى لا يعرفه الكون أصلا ، ولا يعرفه فيه إلاّ الأحياء لأنه من باب الخيال والشعور والوعى بكافة صوره .

فالحضارات القديمة من مصرية وبابلية وآشورية وإغريقية ورومانية وما سبقها من أنظمة بدائية بادت وصارت خرابا خَلَّف آثارًا فى مواقعها أو فى المتاحف ونحوها .. ذلك لأنها لم تكن فى الكون أكثر من تصورات بشرية لا حصر لها ارتسمت فى أشياء ماديةٍ اعتنقها وحفل بها وعى الآدمى وعقله وخياله ، وفقدت قيمتها ومعناها باختفاء الوعى والعقل والخيال الذى اعتنقها وحفل بها .. أى باختفاء حياة الأحياء التى كانت ضرورية أو نافعة لوجودهم .

والآدمى لا يكف فى أى لحظة من وعيه ..يقظاً كان أو نائماً .. لا يكف عن محاولة تحقيق بعض نواياه .. وهى ليست إلاَّ خيالاً مصحوباً بعزيمة .. ولا ينقطع مجراه الدائم المتتابع إلاّ بانقطاع الحياة وتوقف الخيال والنوايا ،

لأن حياة الآدمى خيال ونيات .. تنجح أو تخفق محاولات تحويلها إلى صور وملموسات وأحداث محسوسة يعطيها الآدميون أسماءً وأوصافاً ونعوتاً فى إطار الزمان والمكان .. وهذه النوايا تكون إيجابية كإشباع حاجة أو لذّة أو منفعة ، وقد تكون سلبية أو إيجابية عكسية كالخوف من ضرر أو خطر قليل أو كثير .

وفى الشعور المتتابع بالخيال والنوايا ، تتوالى نبضات حياة الآدمى وأنفاسه إلى أن تتوقف ؛ فإذا مات صار ذكرى لآدمى ولم يعد آدميًا .. وهذه الذكرى تضعف باستمرار مع مرور الزمن ؛ لأنها ذكرى فى مخيلة من بقى حيًا ممن كانوا معه من أهل أو معارف ، أو فى مخيلة من جاء بعده إذا بقى لديهم اسمه وآثاره إن كان الميت ممن صادفوا معرفة ما له من آثار فى أعمال أو كتابات أو فنون أو مواقف تدعو إلى تبجيله أو تدعو إلى العكس .. ولا غرابة فى ذلك ، فذكرى أمثال هتلر وموسولينى وحارقى روما ومكتبة الإسكندرية باقية بصورتها الكريهة فى مخيلة أجيال لم ترهم وإنما سمعت بهم أو قرأت عنهم !

وربما كان ذلك كله فرعا على أن أصل حياتنا أنها توجد من عدم .. وأن وجودها موقوت بأجل تنتعش فيه وتنتكس .. قد يقصر وقد يطول .. وأن امتداد وجود أية جماعة بشرية لا يحتاج إلى بقاء الأفراد بأعيانهم .. وأيًا كانت قيمة وأهمية أعمال وأثر بعضهم .. وإنما تمتد الجماعات وتبقى بحصول التناسل والتعاقب والثورات مما يحفظ استمرار بقاء الجماعة برغم حتمية فناء الأفراد والآثار والأجيال .. كل فى نهاية عمره وجيله .

ولكن يبدو أيضا أن بقاء الجماعات بقاء نسبى فقط ، وخلال أجل من الزمان قد يمتد إلى أحقاب ودهور وعصور .. وكم من جماعات كانت ثم

بادت أو زالت من الوجود لتنشأ فى ذات مكانها جماعة أخرى تربطها أو لا تربطها صلات بالجماعة البائدة .

هذا الخيال وما فيه فى الأغلب من الأضغاث ينسينا أننا فانون ، ويساعدنا مساعدة هائلة على تناول حياتنا وممارستها بحماسة وشغف كأننا باقون أبدًا ولن نموت ، ويضمن تقبلنا لها وحرصنا عليها يضمن استمرار الجنس البشرى إلى ما شاء الله عز وجل .

من تراب الطريق (٥٣١) ملكة الخيال (*) (٥)

إن أسباب الأمان والاطمئنان على بقاء الحضارة الحالية واستمرارها فى النمو ليست أقوى ولا أكثر من أسباب القلق والخوف عليها . وهذه وتلك ميدانان فسيحان جدا لسعى الخيال والنوايا .. إذ لا يخفى قادة البلاد المتقدمة وعلماؤها ومفكروها وخبراؤها لا يخفون قلقهم على مصير هذه الحضارة التى انتشرت وامتدت معالمها فى عالمنا بأسره برًّا وبحرً وجوًّا.. فقد يأتيها التدمير البشع الهائل من مخترعاتها ومكتشفاتها وتقنياتها وعلومها ونفوسها .. وهذا التخوف ليس بعيدًا وفيه قدر من الاحتمال يوجب على كل عاقل ألا يغفله .. سيما بعد أن توافرت لدى الجماعات الكبيرة وبعض الجماعات الصغيرة أسلحة ووسائل التدمير الشامل .. الذرية والهيدروجينية والبيولوجية والكيماوية .. ولم تنجح الجهود الدولية للآن فى إبعاد هذه الوسائل إلاّ عن الدول الصغرى أو الجماعات الصغيرة غير المستقرة تاريخيا وتكويناً ، وبقيت هذه

الوسائل فى معية الدول أو الجماعات الكبرى التى لها أغراضها فى السيطرة على العالم والتنافس الرهيب من أجل ذلك فيما بينها ، مما يحمل نذراً واحتمالات تهدد الحضارة إن لم يكن الوجود البشرى ذاته .. ومن المعلوم أن الوقاية من هذه الوسائل ليست سهلة ولا مضمونة ، وتوفيرها يحتاج إلى جهود ونفقات باهظة ليس لها آخر ، ثم سرعان ما تتجاوزها الاكتشافات

(*) المال ٣/ ١٠/ ٢٠١١

الجديدة والتحسينات فى وسائل التدمير والتخريب التى لا تزال تتفوق على أجهزة الوقاية ، الأمر الذى يهدد كنوز هذه الحضارة من العلوم والفنون والدراسات والتجارب مهما بذلت الاجتهادات فى تحصينها وحمايتها ، ناهيك عن تهديد الدمار الشامل للإنسانية ذاتها .

ثم إن خيال الآدميين سيل دائم يسير تارة هادئا ، ويسير طورا متدفقا ملتهبا بدرجات وتنوعات لا حصر لها تبعا لنشاطات العقل والعاطفة معا.. وهو يتوالد بعضه من بعض ، ويبنى بعضه على بعض ، ويعجز من يراقبه عن معرفة أين تنتهى وأين تبدأ خيوطه المتداخلة بالغة الكثرة عجيبة المرونة والظهور والاختفاء .. ومن العسير جدا على أىٍّ منا أن يتحكم فى خياله وأن يقتاده ويوجهه إلاَّ بعد مران شاق على التركيز وحصر الانتباه كما يفعل كبار أهل العلم والفكر والتأمل والفنون .

والإلهامات التى يتحدث البعض عادة عن أنه أُلهم بها ربما كانت خيالاً موفقاً ناجحاً لحلٍّ موفق ناجح ظهر فى وعى صاحبه فى فترة راحة من التوتر أو المجهود الذى طالَ وشَغَلَ أفق الوعى بخيالات أخرى حالت دون ظهور أو تأخر ظهور الوعى الموفق الناجح الذى بدا لصاحبه كأنه وحى أو إلهام جاءه من السماء .. وهذه ظاهرة أكثر حدوثا لدى الباحثين والمؤلفين والفنانين والشعراء . ولعل هذا يرجع إلى ما اعتاد عليه البشر منذ عرفوا اللغة من تسمية الأمور بما يناسب أغراضهم .. وقد أسبغوا على أفعالهم المادية إيجابا وسلبا أسماء ونعوتا لا أول لها ولا آخر .. مع أن أفعالهم كلها لا تخرج عن كونها حركة أو سكونا فى مكان وزمان ، وسموا نواتج تصورهم وذهنهم بأسماء لا حصر لها على أساس أغراضهم منها أو جدواها وعدم جدواها

لهم .. من أنها لا تخرج عن أنها تحرك الخيال أو تصور دافع التحول . والتغير قد يصادف أو لا يصادف تعلق إرادة الآدمى بمحاولة تحقيقه ؛ أو انتظار تحقيقه دون دخل لإرادته فى ذلك .. ولأن عالم الآدمى من المعانى أرحب وأوسع بكثير عن عالمه المادى المحدود بحدود المكان والزمان .

إن كل ما قلناه أو نقوله فى حياتنا ، وكل ما قاله وسيقوله غيرنا فى المستقبل يستحيل أن يفلت من هذا الطابع البشرى الملازم الدائم ، وهو أنه عبارة عن تصور وخيال من آدميين لآدميين .. وما نرى أو يرى غيرنا فى الحال أو فى المستقبل أنه تحقق ، لا يعدو أن يكون نسبى المعنى .. خاصا بالآدميين ورسائل من بعضهم لبعض .. يتبخر وجودها بالإغفال والترك إذا نسيها الآدميون أو رحلوا .. لأن هذا الكون الهائل من حولنا لا يعترف ولا يحفل بها كما يبدو لنا !!

ونحن لا يمكننا قط ، أن نتجاوز عالمنا الآدمى بخصائصه ومعنوياته .. مهما أمعنّا فى التصور والخيال تعمقًا أو عربدةً وشطحًا .. ومهما اعتقدنا أننا أحسنّا أو أسأنا فى الالتفات والاتجاه والمقاصد والأغراض .. ومهما فهمنا وعرفنا أو أَغْفَلنا بجهلنا وتدهورنا.. ثم مهما أقمنا وعَمَّرنا أو دَمَّرنا وخَرَّبنا وأهلكنا !!

فهذا العالم عندنا وعند من قبلنا وعند من سيكون بعدنا ظل وسيظل عالماً ممتعاً ممتدًّا بها لا حدود لنهايته .. لا يتناقص ولا تنقضى قدرته على الإمتاع والجذب والإغراء للبشر .. مليئا بها لا آخر له من فرص الإدراك والإبداع والتحدى ، والآمال والجمال والفتنة .. لا ينتقص من سحره وجماله وإبداعه وفتنته عندنا أن قوامه فينا عناصر ليست لدى غيرنا من الكائنات ، هى

الوعى والمخيلة والذاكرة والعقل والعواطف . وكلها استعدادات توجد ثم تنقضى فى كل منا .. ليست أشياء محسوسة جامدة أو شبه جامدة ، وليست طاقات عمياء بكماء منتشرة فى غيرنا وفى الكون .. هذا الكون الهائل الذى بدا لنا خلال ملايين السنين خاليا من هذه الاستعدادات والملكات الثمينة والطاقات الدفينة الكامنة فينا التى أنعم علينا بها الخالق تبارك وتعالى والتى بدونها لا يكون لوجودنا ولا للوجود كله أى معنى لدينا !